طيفها

أحمد لطفي محمد ـ مصر

ملأ الظلام أركان غرفته، وما إن غابت يديه عن بصره، قام باحثًا عن مصباحه الذهبي وأشعله، فاكتست الغرفة بالون المميز، وأحضر لوحةً بيضاء كساها المصباح صُفرة. ثم انحنى تحت سريره فأحضر فرشاةً وألوانٍ رخيصة. وغمس ريشته في اللونِ الأزرق ثم رسم رداءً أنثويًا يُبرز الصدر ويكشف عن الرقبة وأعلى النهدين، ثم غيّر الألوان فرسمَ وجهًا ملائكيًا، وعينًا زيتونية، وقرطًا زاده ضوء المصباح توهجًا، وشعرًا انسدل من خلف قرطيها حتى اختفى خلف ظهرها.. نظر إليها نظرةَ إعجابٍ عابرة، فاكتسى وجه الصورة حمرةً. تعجّب منها وكاد يخاف، وزاد خوفه إذ سمعها بيومٍ تقول:

"لا يُناسبني الأزرق، ألا ترى لون عيناي"

فانتفض من مكانه فرحًا. كان صوتها أول صوتٍ أنثوي يفوح بهواء بيته. حاول أن يشفّ السمع ليسمع الصوتَ مجددًا، فلم يسمعه، لكنّه أنحنى فأحضر الأدوات مجددًا، وغمس الفرشاةَ في ألوانه صانعًا الزيتوني وغيّر لون الرداء. ثم وقف أمام اللوحةِ مركّزًا نظره على شفتيها الرفيعة علّها تتحرك. لكنّها تصنّمت، فالتفت عنها يائسًا، فجاء صوتها:

"أحسنت، لكن شعري قصيرًا"

نظر إليها بسرعةٍ فعادت صنم. فقد صوابه، غضب، لكنّه أعاد أدواته تحت السرير، ثم أطفأ المصباح ونام..

جاءته في المنام عابسة، فرفع حاجبيه متعجبًا وقد نسي غضبه الذي نام عليه، وقال: "أتغضبين وأنتِ المُخطئة؟"

قالت: "أنا أنثى، ويحق لي الغضب وقتما شئت، لكن لماذا غضبت أنت؟"

قال وعينيه تنظر للأرض كنجمةٍ وحيدة:

"لأنّك تظهرين فأعلّق، وتختفين فأحزن"

فقالت له: "أحبُّك"

هنا، كان ضوء الشمس قد عبر الزجاج إلى وجهه فأيقظه، وكان لا يزال يردد:

"لأنك تظهرين فأعلق، وتختفين فأحزن"

توقف عن الكلام ونظر للوحة فوجد الشعر المسدل خلف ظهرها قد قصر حد الكتف، وفتحةُ الصدر قد غُطت، وبرزت الرقبةُ أكثر، ووجد جوار اللوحةِ أدواته، فانتفض من سريره مستفهمًا، مستنكرًا، متعجبا، يروح ويجيئ خطوتين خطوتين هما عرض غرفته وأقصى عالمه الحسي، لكنّها ليست إلّا لوحة..

ظلّ على هذا الحال سنين، تغيرت فيها اللوحة حتى صارت خلفيتها زرقاء، ورداءها أسود، وشفتها مكتنزتان وشعرها مُغطّى. وقرطاها يلمع جزءًا منهما أمام الرداء الأسود، لكن عينيها لم تتغيرا، ووجهها الدائري استحال قمرًا يكسوه خجلٌ

دائم.. وهو ظهر في شعره الأسود شعراتٌ بيض، وثقل الكلام على لسانه إلّا من أحلامها، لكنّه دخل غرفته يومًا وقد دفع الباب خلفه بقوة، ثم وقف أمام اللوحةِ بوجهٍ حمّره اندفاع الدم، ثم أخرج من جيبه سكّين، ومزّق اللوحة، ثم نام..

بالمنام رآها تبكي، وأعلى رأسها نار. حتى خُيّل إليه أنها شمعة. وبالوقت بدأت تذوب فحاول أن يندفع ناحيتها كي يُطفئ النار لكنّه فشل، كان هناك حاجزًا لم يره. وأفاق فزعًا وقد احترقت بأكملها..

أحضر أدواته مجددًا وبدء في رسمها من جديد. فشل أول مرّة، وثاني مرّة وكان الحال مماثلًا في المرةِ الألف، حتى قرّر أن يترك بيته ليمشي جوار البحر. وتكرر مشيه حتى لم يعد يعود غرفته إلّا للنوم، وباليوم الثالث عشر له جوار البحر، رآها، هي هي، مرسومته التي عشقها. جميلةٌ كفّاها مبتلتان بلا سبب، فاندفع ناحيتها وأمسك يديها ليتأكد من كونها حيّة، وهي تركته يندفع وتركته يُمسك يدها دون أن تعترض، ألفته مذ رأت وجهه. طلب منها أن يرسم لها لوحة، فوافقت. فذهب لغرفته مسرعًا وأحضر الأدوات ثم أجلسها على كرسيٍ جوار البحر، وبدأ في رسمها، ولّما انتهى، لم تعجبه اللوحة، رآها أجمل، وهي أمسكت اللوحة ونظرت للشمس الغاربة، ثم قالت إليه:

"أحبّك. هذه المرّة حقيقية"